حلول كلمة الله في جسد السيد المسيح

موضوع تسربُل كلمة الله، عزّ وجلّ، بالطبيعة البشرية لأجل تجديدها، موضوع يفوق طاقة البشر، فإذا عجزت عن الإقناع، فلا يعني هذا وجود عيب في صُلب القضية، بل يعني قصورا في فهم تفاصيلها.

واستجابة لحيرة الجادّين والمهتمّين بالأمر، سأحاول التعرّض إلى هذه المسألة باعتباري من الباحثين عن الحقّ، لا فارساً في هذا المضمار.

يتّهمنا المتشكّكون بأنّنا نهين الله ونحقّر من شأنه بقولنا إنّ كلمته أصبحت إنسانا في رحم عذراء، وشبّ على الحليب طفلاً وعلى الطّعام رجلاً؛ وأنّه تعب وجاع وعطش وجُلِد وصُلِب، ممّا لا يتوافق مع ألوهيته.

حاشا لله أن ننسب إليه سبحانه وتعالى ما يحقّر من شأنه! لا، بل إنّنا نحمده ونسبّحه على رحمته الفائقة الوصف. فكما جاز الموت على الجنس البشريّ بعصيان إنسانٍ، كان من اللائق إحياء البشر بطاعة إنسانٍ أيضاً. ومثلما تولّدت الخطيئةُ التي هي سببُ شقائنا، من امرأةٍ، تعيَّنَ على مانح صلاحنا ونجاتنا أن يُولَدَ من امرأة. ولذلك، كان من اللاّئق أيضاً أنّ الشّيطان الّذي أغوى الإنسان وانتصر عليه بأكله من الشّجرة، أن ينهزم أمام الإنسان في آلام الشّجرة التي تحمّلها الإنسان.

ولكنْ لردّ مزاعم المتشكِّكين، ينبغي إقامةُ الحُجّة العقليّة على صدق هذه الدّعوى أوّلاً. أعني بذلك بيان الضرورة التي تُحتّم نزول الذّات الإلهيّة أو إمكانية انحدارها إلى تلك الأمور التي نتحدّث عنها. ثم يجب علينا، بعد ذلك، أن نخوض في التّفاصيل.

ألم ترَوا إلى الجنس البشري الثمين، وكيف لحقه الخرابُ الكليّ، وهل يليق أن يؤول الغرض الذي دبّره الله للإنسان إلى البوار؟ لا، ولذلك فإن قلنا إنّ هذه النجاة قد تتمّ على يد إنسان يخلقه بلا خطيئة، أي من غير طينة الشرّ، ولا من سلالة أيّ بشر، بل يُنشِئه نشأةً كما أنشأ آدم -عليه السّلام- حتى يتهيّأ لذلك الإنسانِ القيامُ بالعمل الّذي نتكلّم عنه، يُقال عندئذ إنّه إذا استطاع أيّ مخلوقٍ آخرَ إنقاذ إنسانٍ من الموت الأبديّ، فإنّ الإنسان سيكون عبداً لذلك المخلوق؟ ومن هنا سيصبح الإنسان الذي أمر أن يعبد الله عبادة خالصة عبداً لمخلوق غير الله.

فهل وقعنا في أسْر حتّى لا يستطيع الله تحريرَنا منه، دون أن يتكبّد لفدائنا من كلّ هذه الآلام ويبذل دم حبيبه؟ نعم، وقعنا في أسر ذنوبنا، وفي قبضة الشيطان، الذي جاء الله ليقهره من أجلنا، لعجزنا عن القيام بذلك بأنفسنا؛ وذلك لفائق محبّته لنا.

فهل الله تعالى غير قادر أن يصنع ذلك بمجرّد أمر؟ أَوَليس بمقدوره صنعُ ذلك بطريقة أخرى؟ ولو كان الأمر بمقدوره، فكيف نبرّر حكمته، عندما نقول إنّه شاء أن يكابد أموراً لا تليق بجلاله؟ وفي حال تمكُّنِهِ من إنقاذ الإنسان بوسيلة مختلفة، فلماذا إذن يفعل تلك الأمور المذكورة ويتكبّد كلَّ ذلك العناء، إظهاراً لمحبّته؟

أوّلاً، إن أراد الله ذلك فعلاً، فلا بدّ أن تكون إرادة الله سبباً كافياً لنا، حتّى وإن عجزنا عن فهمها، لأنّ إرادة الله لا تتنافى مع المنطق البتّة. فالألوهيّة غير متأثّرة بالألم. لكنّنا نقول بأنّ سيدنا

عيسى المسيح هو إنسان حقّ، وفي الآن نفسه، هو كلمة الله الأبدية؛ شخصٌ واحدٌ في طبيعتين، وطبيعتان في شخص واحد. فعندما نتكلّم عن التألّم، فنحن لا نشير إلى جلال تلك الذات الإلهية غير المتأثّرة بالألم؛ لكن إلى ضعف الطّينة الإنسانيّة التي تَسَرْبَلَ بها. ليس في تأنّس كلمة الله من خِفض للألوهية بل فيه رفعةٌ للإنسانية.

فهل الله عاجز عن إنقاذ المذنبين بأيّ وسيلة غير إماتة سيدنا عيسى المسيح؟ ولكن إذا كان قادراً على ذلك، لكنه لم يرغب فيه، فكيف نؤمن بحكمته وعدله؟ إنّ الله لم يُمِت البريء عِوَضًا عن المذنبين. ذلك بأنّه لم يرغمه على تجرّع الموت، بل ولم يدعه يُذبَح ضدّ إرادته، إنما تحمّل عيسى –سلامه علينا- الموتَ لإنقاذ البشر بمحض إرادته. ومن الواضح أنّ سيدنا آدم، لو لم يُخطئ، لما كُتِب عليه الموت؛ وبسبب عصيانه كُتِبَ على الإنسانيّة الموتُ. إنّ الله لم يُرغم السيّد المسيحَ على الموت؛ لكنّه قاسى الموتَ طوعاً. فهو نفسُه يقول: «وأقولُ لكُم إنّ اللهَ الأبَ الرَّحيمَ يُحِبُّني لأنّني أُضَحّي بحَياتي حتّى أنالَها ثانيةً. وما مِن أحَدٍ يَنتَزِعُ حَياتي مِنّي، بل أنا أُضحّي بها بِمِلْءِ إرادتي وساعةَ أشاءُ، ولقد أوصاني اللهُ أبي الصَّمَدُ بهذا، وأعطاني حَقَّ أن أُضحّي بها وحقَّ أن أنالَها ثانيةً.» (الإنجيل، يوحنّا 10: 17-18)

فهل من الصحيح إذن أنّ الله لا يقدر أن ينقذ الإنسان بطريقة أخرى، وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا شاء أن يعمل ذلك بهذه الطريقة؟ لا شك نحن نتّفق على أنّ الإنسان خُلِق للسّعادة في الحياة الدنيا والآخرة، وما مِن مخلوق يمكن أن ينال هذه السّعادة أبداً، إلاّ بالتّحرّر من الخطايا والذنوب. فلا مفرّ، لكي ينالَ الإنسانُ السّعادةَ، من أن تغفر ذنوبه.

فلنتحرَّ الوسيلة التي يكفِّر بها اللهُ عن ذنوب البشر، ولنتدارسْ أوّلاً ما هو الذّنب، وكيف يمكن التّكفير عنه.

أوّلاً، الذّنبُ الأكبر هو عدم إعطاء الله حقّه، وهو الخضوع لأوامر الله خضوعاً تاما. فمَن لم يؤدِّ هذا الدَّيْن لله فهو مذنب. علاوة على ذلك، فإنه يبقى مذنبا طالما أنه لم يَرُدَّ ما سلبه من حقّ الله. فلذلك، يجب على كلِّ مُذنب أن يردّ شرف الله الذي سلبه إيّاه.

نحن نعلم أنّه لا يليق بعدل الله الصّفحُ عن الذّنب دون قصاصٍ من المُذنب بدافعِ ردّ الشّرف المسلوب، أي استناداً إلى الرّحمة وحدها. فضلاً عن أنّ ذلك يكون، عند الله، بمثابة عدم التّفريق بين المذنب وغير المذنب. وحاشا لله أن يكون ظلاّما لعباده!

إذن، فالأمر مُنتهٍ: دون كفّارة، أي دون التّسديد الطوعي للدَّيْن، لا يمكن أن يتجاوز الله عن الذّنب دون قِصاص. وكذلك، يجب أن تتناسبَ الكفّارة مع الذّنب، فماذا نقدّم لله نظيرَ ذنبِنا؟ هل هي التّوبة النّصوحة، نُكرانُ الذّات، العفوُ والشّفقة عند المقدرة، أم الطّاعة لله عزّ وجلّ. غير أنّنا مدينون لله بكلّ تلك الأمور، وأداؤها لا يعوّض الله عن انتهاك شريعته. فكيف إذن ننال النجاة؟

إذا علمنا أنّنا نذنب عندما نعارض -عن قصدٍ- أوامر الله، حتى في أتفه الأمور، تبيّن لنا أنّنا لا يمكن أن نكفّر عن ذنبنا ما لم نُكفِّر عنه بشيءٍ أعظم قدراً من الوصية التي تأمرنا بعدم ارتكاب الذّنب.

وممّا لا شكّ فيه أنّ الله رحيم، لكنّنا نتكلّم عن تلك الرّحمة الفائقة التي يُجعَلُ بها الإنسان سعيداً في الحياة الآخرة. وقد علِمْنا أنّه لا يجب منحُ السّعادة والنّعيم لأيّ إنسانٍ لم تُغفر ذنوبُه بالتّمام؛ وأنّ هذه المغفرة لا يجب أنْ تحدُثَ إلاّ بدفع الدَّيْنِ الذي سبَّبه الذّنب، طبقا لجسامة الذّنب.

ولكن كيف يُنقَذ الإنسانُ إذن؟ وبأيِّ وجه نعلن أنّ الله، الغنيّ ذو الرحمة التي فوق مدارك البشر، ليس بإمكانه أن يرحم؟ وكيف يتمّ إنقاذ الإنسان على يد السيد المسيح سلامه علينا؟

من السّهولة إثباتُ أنّ الإنسان خُلِق ليكون غير خاضع للموت؛ لأنّ إرغام الإنسان على تجرّع الموت بدون ذنب اقترفه يتناقض مع حكمة الله وعدله. ونتيجة ذلك أنّ الإنسان إذا لم يخطئ أبدا، لن يُكتب عليه الموت. لذلك، فلولا اقترافُ الإنسان المعصيَةَ، لكان قد انتقل بجسده إلى الخلود. ومن ثمَّ، فعند بعثه من جديد، لابدّ أن يتمّ ذلك بجسمه الذي عاش به في الدنيا. ولمّا كان الإنسان أثمنَ مخلوقات الله، تعيّن على الله إتقانُ ما بدأه في الطبيعة البشرية. لكنّ ذلك لا يتأتّى إلاّ بالتّكفير عن الذّنب تماماً، وهو ما يعجز أيُّ مُذنِبٍ عن تحقيقه بذاته، كما يستحيل حدوث هذا إلاّ إذا كان الثمن المدفوع لله عن ذنب الإنسان أعظم من الكون كلّه. ولذلك، فما من أحد غير الله قادر على صنع هذه الكفّارة.

لكن، لا يجب لأحدٍ غير الإنسان أن يقوم بذلك، وإلاّ كان مقدّم الكفّارة غير الإنسان، لذلك وجب أن تصبح كلمة الله إنسانا ليقوم بذلك. وهنا، يجب أن نتحرّى كيف يمكن أن تصبح كلمة الله بشرًا.

لا يجوز أن تتساوى الذات الإلهية (اللاّهوت) مع الطّبيعة البشرية (النّاسوت)، لكي لا يصيرَ اللاّهوتُ ناسوتاً أو النّاسوتُ لاهوتاً؛ كما لا يجوز خلطُهما بحيث ينتج عنهما ثالثٌ، لا هو إلهٌ بالكامل ولا إنسانٌ بالكامل. لأنّه، إذا افترضنا إمكانية تحوّل الواحد منهما إلى الآخر، لنتج عن ذلك وجود إله فقط دون الإنسان، أو إنسانٍ فقط دون الله. فلكي يؤدّي الله الإنسان تلك المهمة، لا بدّ أن يكون نفسُ الكائن من ذات الله ومن ذات الإنسان بالكامل، لكي يصنع هذا التكفير. لأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك، بل ولا يجب أن يفعل ذلك، ما لم يكُن قائما بذات الله حقّا وبذات الإنسان حقّا.

فإمّا أن يمنح الله ذلك الناسوت لكلمته من آدم، أو يصنع إنساناً جديداً. لكن لو صنع إنساناً جديداً، ليس من جنس آدم، لما انتمى هذا الإنسان إلى العائلة البشرية، ولما أمكنه أن يصنع تكفيراً نيابةً عنها.

إن الله قادر على خلق الإنسان بأربع طرق: إمّا من رجل وامرأة؛ أو بدون رجل وامرأة؛ أو من رجل بدون امرأة؛ أو من امرأة بدون رجل، وهو ما لم يكن قد فعله من قبل. ونكتفي بالقول إنَّ كلمة الله المتأنّسة يجب عليها أن تولد من عذراء. فما أنسب أن يوجد علاجُ الذّنب ومصدرُ إنقاذنا في امرأة، مثلما نشأ ذنبُ الإنسان وسببُ إدانته أيضاً من امرأة. فإذا كانت عذراءُ هي التي جلبت كلَّ الشرّ على الجنس البشري، فمن الأنسب أن تتسبّب عذراء أخرى في كلّ الخير. ولمّا كان الله أنشأ المرأة من رجل وحده، فمِن الأنسب كذلك أنَّ ذلك الرجل (أي السيد المسيح)، الذي ينبغي أن يأتي من امرأة، يولد من امرأة بدون رجل.

ولا ينبغي أن يتجرّع هذا الإنسان الموت، ذلك بأنّه معصوم من الذنب، لأنّه كلمة الله. ولكن، هل يجوز لهذا الإنسان أن يموت عِلماً بأنّه قادر على كلّ شيء، بما أنّه كلمة الله؟ إنّه قادر، إذا أراد، أن يضحّي بحياته وأن يستردّها ثانيةً. ومن ثمّ، فهو قادرٌ أن يتفادى الموت إذا شاء، وأن يموت ويُبعَث ثانيةً. فإذا شاء السّماح بقتله، جاز أن يُقتَل؛ وإذا لم يشأ السّماح بذلك، امتنع قتله.

حان الوقتُ الآن لنتحرّى العطية التي يجب أن يهبها هذا الإنسان لله بتأنّسه. لأنّه لا يجوز له أن يعطي ذاته لله، أو أيّ شيء آخر، فالله مالكُ الكلَّ، وكلُّ مخلوق مُلكِهِ. لذا، يجب فهم هذه العطيّة على النحو التالي: أنّه يتخلّى عن ذاته، أو عن شيء له، إكراماً لله، لم يكن الله يمتلكه بصفته صاحب دَيْن. دعُونا نرى إذا كان ذلك يتمّ بالتخلّي عن حياته أو بالتّضحية بها، أو بتسليم نفسه للموت ردّاً لشرف الله. فالله عزّ وجلّ لا يطالبه بذلك بصفته ديناً؛ لأنه بسبب تنزُّهه عن الخطيئة، فهو غير مجبر أن يموت. يستطيع هذا الإنسان منح ذاته لله بتسليم نفسه للموت ردّاً لشرف الله. لذلك، فمَنْ أراد التّكفير عن ذنب الإنسان يجب أن يكون قادراً على الموت متى شاء ولا يستحقّ الموت بسبب ذنبه.

هناك أيضا العديد من الأسباب الأخرى المبرّرة لوجوب اختلاطه بمعشر البشر والتشبّه بهم، ولكن دون ارتكاب ذنب. فذاك الذي قُدِّر له أن يفدي البشرية، ويعيدها بتعليمه من طريق الموت والهلاك إلى طريق الحياة والسعادة الأبديّة، حافظ على القداسة حفاظاً شديداً؛ وبذلك ضرب للبشر مثلاً على عدم الانحراف أبداً عن القداسة الواجبة لله، وذلك بسبب التضحية الشخصية التي قدّمها.

وهكذا، نرى كيف تنسجم رحمة الله مع قداسته، فتظهر أشدّ علوّا وسموّا ممّا يمكن أن يخطر على بالٍ. فأيّةُ رحمةٍ تفوق قول الله للمذنب المقضِيّ عليه بالعقاب الأبديّ: "خُذ خليفتي الوحيد وقدّمه ضحيّة عن نفسك؛" أو قول السيد المسيح: "خذوني وافتدوا نفوسكم." فهذا هو لسان حالهما عندما يدعواننا ويقوداننا إلى الإيمان بالإنجيل.

آمين.